جيهان كامل

شجرة الحنين

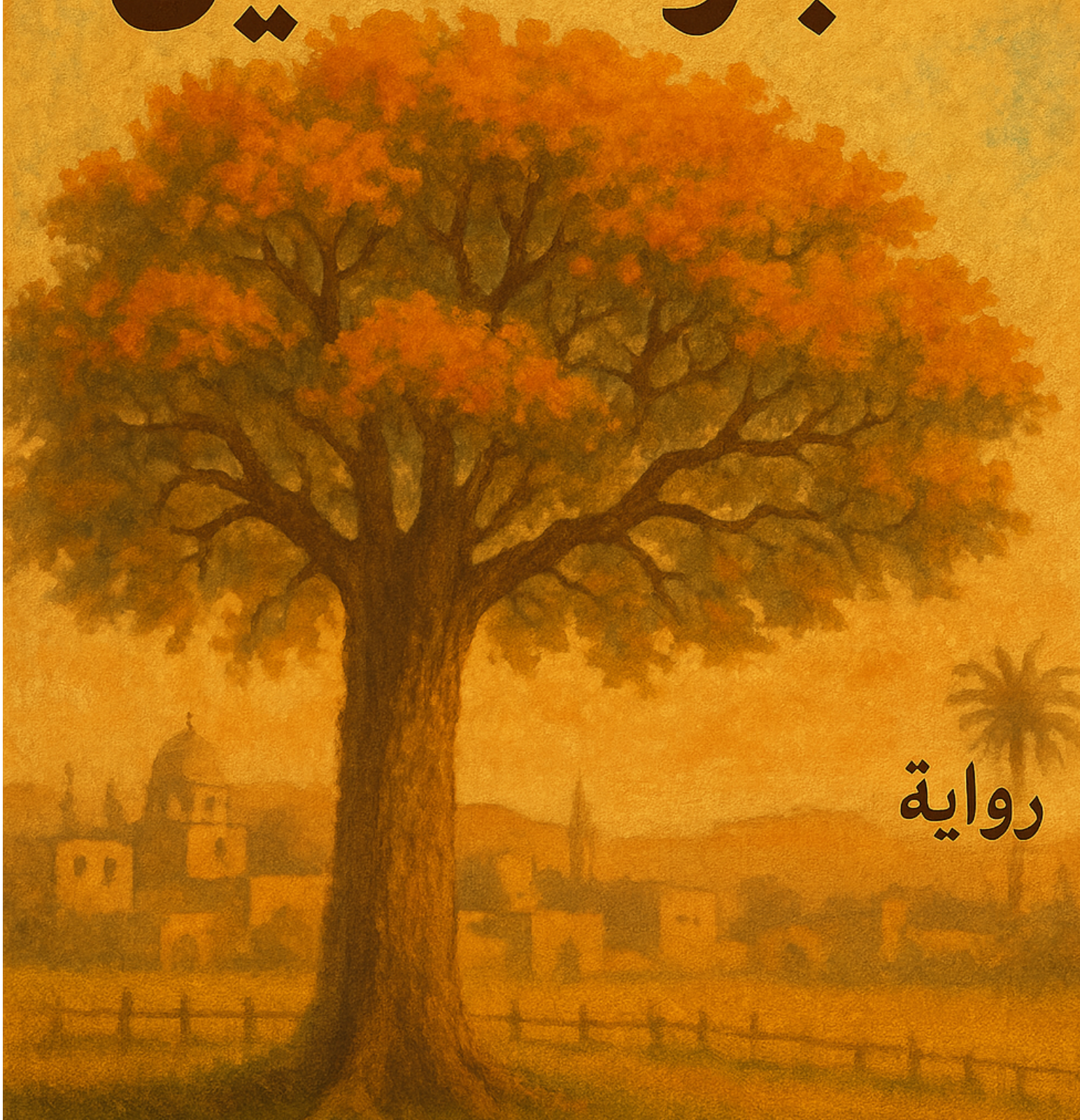

رواية

في التربة ... نُزهِر

اللقطة الأولي الياسمينة التي بقيت. القاهرة

عاد كريم إلى المنزل في شارع الأشجار بمنطقة السيدة زينب يوم ثلاثاء في أواخر أكتوبر، حين كان غبار المدينة يثقل الهواء، والسماء تحمل غشاءً باهتًا. أوقف سيارته المستأجرة بجوار جذع الشجرة المعوجّة التي كانت في يوم من الأيام جميزًا شامخًا، وترجل ببطء، لا يحمل سوى مفتاح لم يعد يناسب القفل كما ينبغي.

كان المبنى واقفًا كعجوز شهدت الكثير وتحملت الكثير. طلاء متقشّر، نوافذ مكسورة، ورائحة خفيفة من السولار والباذنجان المقلي تتسلل من الكشك القريب. ومع ذلك، تحت كل هذا، كانت هناك رائحة الياسمين، ضعيفة ولكن عنيدة. ليست من النوع المعبأ في زجاجات. بل النوع الذي يسكن الجدران.

لم يزر المكان منذ سنوات. في المرة الأخيرة، كانت والدته ترسل له رسائل صوتية في الصباح الباكر: كلمات محسوبة، متعبة، حذرة. قالت هذه المرة: "لا تنسَ البيت. يجب أن نقرر ماذا سنفعل به."

صعد كريم السلم ببطء، وكل درجة تصدر أنينًا كأنها تشتكي. لم يكن يعلم إن كان الشعور الذي يثقل صدره هو الذنب أم الحنين، لكن الصوت أعاده فجأة إلى عمر العاشرة. باب جدته صفية ما زال يحمل اللوحة النحاسية المحفور عليها بخط دقيق: "ص. كمال". هكذا كانت هي—امرأة لا تشغل حيزاً، لكنها تنقش اسمها في الأماكن التي تهم.

دخل.

الهواء كان راكدًا، لكنه لم يكن ميتًا. أشعة الشمس كانت تتسلل عبر ستائر من الدانتيل بلون الأسنان القديمة. أغطية الأرائك كانت تمامًا كما يتذكرها—بلاستيك متشقق، مساند مطرّزة، ورائحة خفيفة من اللافندر والتبغ، لا تنتمي إلا لها. على الرف الخشبي: مصحفها، ومجموعة من أعداد مجلة الهلال القديمة، ومنفضة نحاسية رفضت أن ترميها حتى بعد أن أقلعت عن التدخين عام 1992.

والياسمين.

كان قد نما بعشوائية على سور الشرفة. لم يسقه أحد منذ شهور، ربما سنوات، لكنه ظل صامدًا كأنه ذاكرة. كأنه سر.

اقترب كريم ولمس أقرب برعم.

اهتز هاتفه. رسالة صوتية من أمه:

"كريم، متنساش الدرج المقفول في اوضة النوم. الدرج اللي فيه جوابات سمير. لو لقيتها، هاتها معاك."

نظر إلى الممر، نحو الباب الخشبي الداكن الذي لم يُفتح يومًا.

سمير.

شبح العائلة.

شقيق صفية الأصغر، الذي اختفى عام 1969. سجين سياسي؟ مات في المنفى؟ الحكاية كانت تتغير دائمًا. كريم نشأ وهو يجمعها كفسيفساء مصنوعة من الدخان. لم يخبره أحد من العائلة الحقيقة كاملة. بل سلّموها له على شكل شذرات—أنصاف حقائق، أسماء تتغير، صورة ممزقة اختفى منها أحد الوجوه.

نظر مرة أخرى إلى الياسمين وأخذ نبتة منها.

أحيانًا، الماضي لا يُدفن.
أحيانًا، يتسلق، ينتظر عودتك.

اللقطة الثانية ١٩٥٦ – السيدة زينب، القاهرة

كانت رائحة الخروب والغبار يتسلل عبر الزقاق بينما صفية تشعل الفانوس. الكهرباء مقطوعة مجددًا، والضوء المتراقص يغلف صالونها الصغير بلون كهرماني متأرجح. في الخارج، كانت القاهرة تصرخ —أصوات راديوهات مشوشة، أحاديث من الشرفات و نداء الباعة المتجولين علي بضاعتهم.

جلست صفية بجوار ماكينة الخياطة، لا تخيط. الطفلة كانت قد نامت للتو. وُلدت في أسبوع العدوان الثلاثي. وُلدت في بلد عليه أن يتعلم الوقوف مجددًا.

في الدرج المجاور، ملفوفة بشريط قديم، كانت آخر رسائل من أخيها سمير. كان وقتها في بورسعيد حين نزل البريطانيون. آخر رسالة وصلتها كانت منذ أسبوعين:

"هم لا يعرفون أننا أقوى من هذا. ليس لأننا نحارب أكثر، بل لأننا نصبر أطول."

حفظت الرسالة عن ظهر قلب. لم تعد بحاجة لقراءتها، ومع ذلك كانت تعود إليها دائمًا.

جاء الطرق على الباب—ثلاث طرقات قصيرة، ثم اثنتان. شفرة طرق زوجها يحيي علي الباب.

يحيى رجل تعلم أن يصغر نفسه في بيته. موظف حكومي نهارًا، وأب حذر ليلًا، كان وجوده بأكمله مرسومًا حول ألا يُخلّ بتوازن الأشياء. نظر إلى صفية بابتسامة مرهقة، وضع يده على ظهر كرسيها قبل أن يجلس مقابلها.

قال: "بيقولوا الهدنة ماشيه."

هزّت رأسها، وهي تُرجع خصلة متمردة تحت طرحتها. "قالوا كده الأسبوع اللي فات كمان."

تردد لحظة، ثم قال: "فيه اعتقالات في الجامعة النهاردة من صحاب سمير."

شدّها الكلام. "قالوا اسمه؟"

"لا." صمت. "بس انتِ عارفة. الذنب في البلد دي بيتنفس. حتى اللي ما غلطش بيتلط."

سكتا معًا. ضوء الفانوس يتراقص من جديد.

قالت بصوت خافت: "فاكرة لما كان ييجي البيت ودفاتره مليانة شعارات وشِعر؟ مرة يقتبس من ماركس، ومرة يغني سيد درويش. كأن الأفكار تقدر تدفيه."

لم يرد يحيى. لم يكن يكره سمير، لكنه كان يخاف مما يعنيه حبه علنًا.

وقفت صفية. "أنا عايزة ليلى تعرف هو كان مين. كان بيحلم بإيه."

"هتعرف." قال بسرعة. "بس... لما تكبر. لما الدنيا تهدى."

نظرت إليه بثبات. "لو استنّينا الأمان، هننسى نحكي الحقيقة."

أشاح بنظره.

في الفناء، تحركت شجرة الياسمين. كانت أم صفية قد زرعتها يوم ولادتها ووُلدت ليلى ابنة صفية في ظلّها، وكانت صفية قد وضعت زهرة منها بين صفحات كتاب ما زال على الرف العلوي يوم ولادة ابنتها. دائمًا، كان يبدو أن هذا البيت مبني فوق طبقات من الذكريات، بعضها يزهر، وبعضها يُدفن.

في تلك الليلة، بعد أن غفا يحيى على الكنبة، وبينما الشوارع تهمس بهدوء، جلست صفية وكتبت رسالة لا تنوي إرسالها.

"سميري العزيز،

القاهرة تكتم أنفاسها من جديد. لكني أتنفس لأجلك. أشعل المصباح كل ليلة كأنه دعاء، أبحث عن خبر، علامة، أي شيء يخبرني أنك ما زلت شرارة في هذا العالم الثقيل.

ابنتي هادئة، تراقب السقف كما لو كانت تفسّر شفراته. يمكن تكون بتشبهك. أو يمكن، حتلاقي النار الخاصة بيها.

لو ما قدرتش أقول اسمك بصوت عالي، هكتبه في حيطان البيت، وفي اغنية لبنتي.

بكل ما تبقى من أملي،
صفية."

طوت الرسالة، وضعتها في ظرف أزرق، ثم فتحت ظهر الخزانة الخشبية وأخفتها خلف صندوق الخياطة، حيث تعيش الرسائل الأخرى. أرشيف صامت لكل ما حاول هذا البلد محوه.

أسفل الشباك، بدأ ابن الجيران يهمهم أغنية وطنية قديمة. من بعيد، نبح كلب علي لا شئ.

وشجرة الياسمين، لا شأن لها بسياسة الرجال، واصلت نموها نحو السماء.

اللقطة الثالثة ١٩٦٥

كان الراديو في الزاوية يتابع التشويش مرة، ثم يعاود بث صوت عبد الحليم. خفّضت صفية الصوت بظهر معصمها، وقد غطى الدقيق يديها. كانت تعجن العجين للفطير،الذي تحبه ليلى، وتحاول ألا تفكر في الصمت المتزايد في بيتها.

الصمت تغيّر منذ آخر رسالة من سمير.

ثمانية أشهر مضت. كانت الفجوات بين الرسائل تقاس بالأيام. ثم بالأسابيع. الآن، بالفصول.

يحيى لم يعد يجلب أخبارًا من الوزارة. يعود إلى البيت، يخلع حذاءه بهدوء، ويجلس بسيجارته بجانب النافذة، قليل الكلام. عمله أصبح أثقل في عهد عبد الناصر، حيث صار كل ملف مراقبًا، وكل ممر له آذان.

وليلى، الآن في التاسعة، بدأت تطرح الأسئلة.

"فين خالي سمير بجد؟ بابا بيقول في الخارج، بس الكل بيقول في السجن."

لم يكن لدى صفية إجابة لا تزرع الأشواك.

مسحت يديها، ورفعت ليلى إلى حجرها رغم طول ساقيها، وقالت:
"في حقايق قلبنا ما يستحملش يشيلها إلا لما يكون قوي كفاية. وإنتي حتبقي قوية قدام شوية."

قطبت ليلى جبينها. "مش إجابة."

"أحسن ما عندي دلوقتي."

زفرت الطفلة ونزلت من حجرها. "أنا حعرف بنفسي. حتشوفي."

صفية لم تشك لحظة.

في تلك الليلة، دخلت غرفة النوم، مدت يدها تحت السرير، وسحبت علبة بسكويت معدنية. داخلها: ثلاث وعشرون رسالة من سمير، بعض المنشورات، وصورة صغيرة له في مقهى مع اثنين من أصدقائه، و ظلال تخفي الوجوه. أحدهم قُتل أمام مصنع النسيج السنة الماضية.

فرشت المحتويات على السرير كخريطة لحياة أخرى.

توقفت يدها عند ظرف مهترئ أكثر من الباقين. آخر رسالة. بتاريخ يناير ١٩٦٥ . الحبر باهت، كلماته تقرأها بصعوبة:

"صفية،

يمكن أضطر أختفي. لو حصل، قولي لليلى أنا كنت بحاول—مش علشان كنت شجاع، لكن علشان معرفتش أسكت. وده مش نفس الشيء.

هم بيضيّقوا الخناق. مش عليّا بس. على فكرة إن حد يقدر يتخيل الأفضل.

ما تخافيش عليا. خوفي الوحيد... من عدم قول الحقيقة لغاية ما ننسي."

قرأت الرسالة مرتين، ثم أعادتها إلى مكانها. لا تخافي إلا من النسيان. لكن ماذا لو كانت الذكرى أثقل؟

جاء الطرق على الباب. ليس ثلاثًا قصيرة ثم اثنتان طويلة. فقط واحدة. حادة. ملحّة.

أخفت العلبة، ومشت بهدوء نحو الباب. شاب بملابس مدنية يقف بابتسامة مهذبة.

"مدام صفية؟"

"نعم؟"

"بنعمل مسح بسيط للمنطقة."

رفعت حاجبها. "والمسح ده بيحصل بعد المغرب؟"

ابتسم دون أن يطرف. "بس شوية أسئلة. ممكن؟"

لم تتحرك. "زوجي بيتعامل مع الأمور دي. و هو مش موجود."

أخرج دفتراً صغيراً. "أخو حضرتك—سمير عبد الحليم. ما سمعتوش عنه قريب؟"

الهواء تجمّد فجأة. "لا," قالت. "بقاله زمان."

ابتسم مرة أخرى—ابتسامة بأسنان. "لو سمعتوا حاجة، تبلغونا."

أغلقت الباب. وأحكمت القفل.

لم تنم تلك الليلة. جلست عند الشباك، تشاهد المدينة تتنفس وتكتم أنفاسها في آنٍ معًا. مدينة قديمة وحديثة، مكسورة ومضيئة.

وعند الفجر، ذهبت إلى شجرة الياسمين وقطفت فرعًا طويلاً مزهرًا. وضعته في مزهرية بجانب حقيبة ليلى المدرسية. علامة صامتة.

عندما خرجت الطفلة تفرك عينيها، سألت: "إيه ده؟"

"علشان تفتكري," قالت صفية، " في حاجات بتكبر، حتى في أماكن ما كانش ينفع تكبر فيها."

اللقطة الرابعة يوليو ١٩٦٧

الهزيمة لم تأتِ بصوت واضح، ولا بكلمات واضحة.

في صباح أحد الأيام، كانت القاهرة تعجّ بالأغاني الوطنية والوعود. وبحلول المساء، انطفأت الأغاني في منتصفها، ولم تُكمل.

حرب الأيام الستة انتهت في أقل من أسبوع. لكن الحزن... سيستمر لعقود.

صفية استمعت إلى خطاب تنحي الرئيس جمال عبد الناصر عبر الراديو . جلست على الأرض، ظهرها مستند إلى الحائط البارد، وليلى برأسها في حجرها. في الخارج، كان الجيران يجهشون بالبكاء، بانهيار جماعي لأحلام أكبر منهم. لم يسأل أحد عن سبب الحزن—كان شيئًا في الهواء.

"هيستقيل؟" همست ليلى، عيناها واسعتان.

"لأ," ردت صفية بهدوء. "بيقول كده. لكن الناس مش هتوافق."

وفعلًا، لم يتركوه. خرجت الحشود في اليوم التالي، لا غاضبة بل يائسة، تتوسله أن يبقى. كان الحزن يتخفّى في هيئة ولاء. وكان الاستسلام يرتدي ثوب الوفاء.

عاد يحيى إلى البيت متأخرًا تلك الليلة، وقميصه مشبع بالعرق والتعب. لم يتحدث كثيرًا. ولا صفية. الحب بينهما أصبح عادة، وصمتًا مشتركًا. في بعض الليالي، يجلسان على الشرفة لساعات، دون كلمة، يراقبان الياسمين يتمايل وكأنه متألما.

ذلك الصيف، بدأت صفية تكتب من جديد—لكن ليس رسائل. هذه المرة كانت تكتب يوميات. سجلًا. كانت تخاف مما يُنسى، لا بسبب الغفلة، بل بسبب ما يُعاد كتابته من الحقائق: في المدارس، في الصحف، حتى في صمت بيتها.

"سيقولون إننا صمدنا.
سيقولون إننا صبرنا.
لكن الحقيقة أننا انحنينا وسمينا ذلك صلاة."

لم تخبر يحيى. ولم تخبر ليلى. لكن ليلى، ذات الاحد عشر عامًا، بدأت تجمع الخيوط من حولها.

اللقطة الخامسة ١٩٧٧ – جاردن سيتي، القاهرة

وقفت ليلى على شرفة شقتها الصغيرة المُستأجرة، تطل على شارع ضيق، حيث الباعة ينادون على الخوخ والعيش البلدي. لم يكن هذا حي السيدة زينب، لكنه ما زال يشبه القاهرة—بروائحها: عوادم السيارات، التوابل و دخان السجائر.

لقد وصلت الي تحقيق جزء من احلامها.

نالت شهادة الهندسة المعمارية. مُعيدة في الجامعة. تعيش وحدها لأول مرة. لم تتزوج بعد، مخطوبة. ليست متمردة بالمعنى الكلاسيكي، مثل الفتيات اللواتي حلقن رؤوسهن وانضممن إلى مظاهرات، لكنها أيضًا لم تكن ساكنة. لم تكن صامتة. وفي بعض الاشياء، كانت تمامًا مثل والدتها.

عصر الانفتاح كان يغير كل شيء. حبوب إفطار أمريكية في الأسواق. أطباق لاقطة تظهر كالفطر على أسطح المنازل. ونوع غريب من الجوع النهم في عيون الناس—لامع، متعجل، لا يشبع.

هاني—خطيبها—كان يتحدث بالفعل عن الرياض. "بس سنتين،" كان يكرر. "نجمع شوية، نجيب شقة، نفتح عيادة."

لكنها كانت تنظر إلى جدران شقتها المتشققة وتفكر: ماذا لو كانت هذه الحياة البسيطة... هي بالفعل الحياة الأفضل؟

احتفظت بصندوق من كتب والدتها تحت سريرها: نوال السعداوي، توفيق الحكيم، دفاتر مذكرات بخط يد صفية وجدتها صدفة في سن السادسة عشرة، ولم تخبر أحدًا بذلك.

تذكرت سطرًا من أحد تلك الدفاتر:

"التاريخ هو الاسم الذي نُطلقه على الألم الذي بقي."

في بعض الليالي، كانت تشعل شمعة، وتقرأ مذكرات والدتها، ثم تنظر من الشرفة إلى الحبال التي تربط الغسيل من شباك لآخر—كما لو أن الأسر كلها موصولة بخيط واحد .

في 18 يناير 1977، استيقظت على صوت الصراخ في الشوارع. انتفاضة الخبز. المتظاهرون يملؤون وسط البلد. ألسنة اللهب ترتفع في الزوايا.

خرجت من شقتها ومشت. لا تحمل كاميرا. ولا دفتر. فقط جسدها وحضورها.

مرت على محلات محطمة. هتافات غاضبة. جنود يدفعون الجموع.

عند طرف التحرير، رأت صبيًا لم يتجاوز السادسة عشرة يصرخ: "مش ح ناكل كذب تاني!"

وشعرت بشيء فيها يُفتح ليس خوفًا، بل اعترافًا.

عادت إلى شقتها في تلك الليلة. وكتبت جملة واحدة في دفترها:

"نحن ذاكرة أمهاتنا. لكننا أيضًا نارنا الخاصة."

اللقطة السادسة ١٩٨٠ الرياض / القاهرة

لم يكن الوداع دراميًا.

وقفت ليلى في مطار القاهرة، تحمل حقيبتين، والعرق يبلل حافة طرحتها، تراقب هاني يملأ استمارات السفر بدقة موظف. كان يرتدي قميصه المكوي بعناية، ربطة عنقه مشدودة أكثر من اللازم، والتجاعيد تحت عينيه أكثر وضوحًا.

لم يكونا يهربان، ليس تمامًا. لكنهما لم يكونا يتجهان نحو شيء محدد أيضًا.

مجرد انتقال.

"سنتين بس،" قال هاني مرة أخرى. "نجمع شوية. نرجع. نجيب شقة في مدينة نصر. يمكن نفتح عيادة."

هزّت ليلى رأسها، لكنها شعرت أنها تطوي نسخًا من نفسها وتتركها في القاهرة، مثل غرف تُغلق واحدة تلو الأخرى.

والدتها صفية لم تأتِ إلى المطار.
"دعواتي معاكِ،" قالت ببساطة. لم يتشاجرا. لم يكونا من ذلك النوع. لكن الصمت بينهما في ذلك اليوم كان أثقل من أي خلاف.

الرياض كانت جافة، مرتبة، مدينة من زوايا حادة وحرّ لا يُغفر. في البداية، حاولت ليلى أن تجعلها محطة مؤقتة. بدأت تُدرّس اللغة العربية في مدرسة للبنات، تطهو بحميمية وكأنها تربط نفسها بطبق فول أو فطير، تكتب أحيانًا. لكن السنوات بدأت تتوسع.

هاني تغيّر. أصبح أكثر هدوءًا، أكثر تدينًا، أكثر انشغالًا بإرضاء الجميع ،الرؤساء، الزبائن من المرضي.. كانت تراقب الرجل الذي أحبته يذوب تدريجيًا إلى إنسان مصنوع بالكامل من الواجب.

وفي عام 1984، أنجبت ابنًا.

أسموه كريم.

ولد في الرياض، في عيادة خاصة، حيث كانت رائحة المعقمات تملأ المكان.

حين وضعوه في ذراعيها، شعرت بالدهشة والخوف معًا—هذا الطفل لن ينتمي بالكامل لأي مكان. بشرته تحمل شمس القاهرة، لكن أولى كلماته ستُقال داخل جدران غريبة.

في تلك الليلة، كتبت لوالدتها:

"اسمه كريم. عنده مناخيرك. أنا خايفة على صوته. هل حيقدر يومًا يتكلم بصوت يشبهنا؟"

لم ترسل الرسالة. وضعتها بعناية داخل دفتر من دفاترها القديمة من القاهرة، وقبّلت جبين ابنها وهو نائم.

اللقطة السابعة 1988 – المعادي، القاهرة

عادوا بعد ثماني سنوات. ومعهم مدخرات. توتر. وعادات جديدة.

بحلول ذلك الوقت، تغيّرت القاهرة. ناطحات سحاب تطل على النيل. مدارس خاصة نبتت في الضواحي. سيارات أكثر، غبار أكثر، كل شيء أكثر.

استقروا في شقة متواضعة في المعادي، بشجيرات خلف البوابة، وأطباق لاقطة تملأ الأسطح. فتح هاني عيادة صغيرة. ليلى بدأت تُدرّس بدوام جزئي، وتخرج في نزهات طويلة مع كريم، الذي كان في الرابعة، يتحدث العربية بطابع سعودي مشوّه، ويرفض أكل أي شيء بدون كاتشب.

الصمت بين ليلى وهاني أصبح منتظمًا. ليس برودًا، بل مسافة. كما لو أنهما يشتركان في خريطة لكن اختلفا على الوجهة. كان يصلّي أكثر. كانت تكتب أقل.

ذات يوم، خلال زيارة إلى بيت صفية القديم في السيدة زينب، تجوّل كريم نحو شجرة الياسمين.

قال: "الريحة دي زي اللي شُفتها في حلمي."

ركعت صفية بجانبه، يداها ترتجفان قليلًا.
"عشان الياسمين بيفتكر."

كانت ليلى تراقب—أمها، ابنها—وتدرك أنها الجسر بين لغتين،و بلدين.

في تلك الليلة، تشاجرت مع هاني بشأن المدرسة.

"مدرسة إنترناشيونال؟ ده المستقبل!" قال بحماسة. "لازم يعرف إنجليزي كويس."

"والعربي؟" سألت.

لم يرد.

وفي وقت متأخر، بينما كريم نائم، كتبت في دفترها:

"لو خسر جذوره عشان أجنحة، مش حيلاقي مكان له لما الدنيا تمطر؟"

اللقطة الثامنة ١٩٩٧ القاهرة الجديدة، مصر

كان كريم في الثالثة عشرة، ومصر تبدو كبلد يجري ويقف في الوقت نفسه. مبارك في عقده الثاني من الحكم. الاقتصاد يهمس بوعود نادرًا جدا ما يوفي بها. مقاهي الإنترنت بدأت تظهر في زوايا خفية، والأطباق اللاقطة تتكاثر كأنها حمام زاجل على الأسطح.

لكن كريم؟ لم يكن يهتم بشيء من هذا.

كان يهتم بكرة القدم. بأشرطة الفيديو المسروقة لفيلم ذا ماتريكس وإعلانات بيبسي مع عمرو دياب. كان يرتدي جاكيت أديداس مقلّد ويعرف كيف يلعن بثلاث لهجات. كانت العربية المدرسية مملة. الإنجليزية هي عملته.

كان يحب أمه، لكنه لم يفهم صمتها. أصبحت أكثر ليونة، وربما أكثر وحدة. تحتفظ بصناديق تحت سريرها، تكتب على ورق أصفر قديم، وتنظر أحيانًا إلى زهور الياسمين كما لو كانت تطلب منها إجابة لا يجدها في الكتب.

"ليه ما تكتبيش على الإنترنت؟" سألها ذات مرة.

أجابت بابتسامة خفيفة: "أنا بكتب بالقلم. الورق ما بيختفيش من ضغطة."

"أوكي يا ماما..." قال وهو يرفع حاجبيه بسخرية خفيفة.

في المدرسة، كان له أصدقاء من عائلات أغنى، يسافرون إلى أوروبا كل صيف. كان يشعر أنه دونهم قليلًا، ولكنه أيضًا ليس منهم. كأنه يشاهدهم من وراء زجاج معتم.

كان يعرف أن والده يريده طبيبًا أو مهندسًا. لكنه لم يكن يعرف ماذا يريد هو.

لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا:
لا يريد أن يكون عالقًا.

سأل جدته صفية مرة عن مصر.

"هتبقى إيه البلد دي؟"

أجابت:
"مراية."

"بس كده؟"

"بتعكس اللي بندّيه ليها. لكن دايمًا بتقول حقيقتنا... حتى لو ما حبّيناش نشوفها."

لم يفهمها تمامًا وقتها.

لكنه سيفهم لاحقًا.

اللقطة التاسعة 2011 – وسط البلد، القاهرة

كان كريم في السابعة والعشرين حين انشقت المدينة.

أصبح الرجل الذي يشرب الإسبريسو المستورد في مقاهي الزمالك، يعمل في شركة ناشئة تمولها أموال خليجية، ويخفي آراءه السياسية في جيبه كأنها بطاقة عمل لا يخرجها أبدًا. مصر كانت ما هي عليه—مرهقة، متعبة من عجز حاكم و شعب لا يعترف بنظام أو قانون، لا تتغير بل يتبدل حالها الي الاسوء.

25 يناير.

في البداية، ابتعد. بدا الأمر استعراضيًا. "ترند". الكل على تويتر تحول فجأة إلى ثائر. ثم جاءت اللقطات من السويس. قسم الشرطة المحترق. صمت التلفزيون الرسمي. والألم.

ذلك الألم الذي لم يكن يعرف له اسمًا —بدأ منذ سنين، حين أدرك أن والديه دفنوا أجزاء من أنفسهم، عندما قرأ دفاتر جدته دون أن يسألها، عندما نظر في المرآة وشعر أن هناك نسخًا منه قد مُسحت قبل أن يتعرف إليها.

خرج في 28 يناير.

ميدان التحرير كان يشبه الحلم. رائحة العرق، الدخان، والأمل. بدا وكأن شيئًا قديمًا استيقظ.

وقف هناك، كتفًا إلى كتف مع غرباء يهتفون كأنهم يحررون وطنًا كان مختنقًا.

وعندما تنحى مبارك، لم يبكِ.

عاد إلى شقته بصمت، واتصل بأمه. سكتت طويلاً ثم قالت:
"كان سمير حيضحك النهاردة."

كان قد نسي سمير. شبح العائلة .
لكنه شعر في ذلك اليوم، أن سمير سار بينهم.

اللقطة العاشرة صوت في الزحام

٢٠١٣– القاهرة

لم يكن كريم يعرف متى بدأ بالانسحاب، لكنه شعر بذلك كما يشعر أحدهم بأن روحه تتسرب ببطء، دون أن يلاحظ الآخرون.

انتهت لحظة التحرير.
الوجوه التي كانت تبتسم في الميدان أصبحت صورًا على بوسترات بعضهم "مطلوبين".
الأمل الذي كان يهتف به صار مادة ساخرة في برامج ليلية.
والأصدقاء؟ بعضهم سافر. بعضهم صمت. بعضهم اختفى دون أثر

كان يعمل في شركة ديجيتال ميديا، تحاول أن تصنع محتوى "ملهمًا"، بينما الناس بالكاد تدفع إيجارها

كل صباح، ينزل من شقته الصغيرة في المعادي، يشرب قهوته، ويتابع الأخبار دون تفاعل.
كل ليلة، يعود متعبًا بطريقة لا يمكن شرحها.لم يكن حزينًا بقدر ما كان مُنهكًا.
.كأنه حمل شيئًا أكبر من طاقته، ثم اكتشف أن لا أحد يشاركه الحمل حقًا

في أحد اللقاءات، قال له صديق قديم:

"إنت بقيت ساكت أوي، كريم. فين صوتك؟"

".أجاب بمرارة خفيفة: أنا بس مش لاقي حد يسمع

علاقته بوالدته أصبحت سطحية أكثر مما ينبغي. كانت تشعر بغيابه رغم وجوده. ولم يكن يعرف كيف يفتح قلبه دون أن ينهار

في أحد الأيام، جلس كريم مع صديقته من أيام الجامعة في مقهى في الزمالك."مش ناوي تمشي؟" .سألته

"أهرب يعني؟"

".مش هروب، تغيير. أنت بتنزف هنا ومحدش شايف"

صمت

لأول مرة، فكر في أن البقاء نفسه قد أصبح نوعًا من الاختفاء

بدأ البحث في مواقع السفر. فرص عمل. منح دراسية. شعر كمن يخون شيئًا بداخله، لكن الخيانة لم تكن أشد ألمًا من ما يشعر به الآن.

من شركة تكنولوجيا في برلين. LinkedIn وصلته رسالة :
مهاراتك في المحتوى العربي مطلوبة. فريق دولي. أجواء مرنة

برلين؟ لم يفكر فيها من قبل.
لم تكن جذابة مثل لندن أو مألوفة مثل دبي.
لكنها كانت رمادية بما يكفي ليتوارى فيها.
.مدينة مكسورة، رممت نفسها. مثله

قال لنفسه

لو فيه مكان ينفع أختفي فيه شوية، يمكن يكون هناك"

أخبر والدته ذات ليلة

".أنا حاسس إني مش قادر أتنفس هنا"

نظرت إليه.
كان في عينيها شيء بين التفهم والحزن، ثم قالت بهدوء

" بس لما تقدر تتنفس تاني، ارجع"

.ابتسم، لكنه لم يعد متأكدًا إن كان يملك طريق عودة

غادر في صمت

اللقطة الحادية عشر لا شيء يشبه البيت

٢٠١٤ - ٢٠٢٠ برلين

.في ألمانيا، كان كل شيء مرتبًا، حتى الوحدة

وصل كريم إلى برلين في مساء شتوي كئيب.
.المطر خفيف، لكنه حاد. الجو رمادي، والمدينة صامتة على نحو يربك ابن مدينة لا تنام

في الأيام الأولى، كان يتنقل بين الفنادق المؤقتة ومكاتب الأوراق الرسمية. كل شيء بدا منظمًا أكثر من .اللازم—الباصات في موعدها، الوجوه بلا تعبير، التعليمات طويلة ومكتوبة بحرف ثقيل

استأجر غرفة صغيرة في شقة مشتركة مع شاب بولندي وفتاة من كولومبيا. لا أحد يطرق باب الآخر.
لا أحد يسأل. كل شيء يتم برسالة قصيرة على ورقة فوق الثلاجة

في العمل، كان "العربي الهادئ". زملاؤه ودودون، لكن العلاقة معهم بقيت سطحية. كانوا يبتسمون .في المصعد، يضحكون في الاجتماعات، ويختفون بعد الخامسة

لم يكن كريم يشعر بالرفض، بل بالتجاهل.
.وكان ذلك أشد وقعًا

عانى من اللغة في البداية. تعلم الألمانية في دورات مسائية، لكنه كان يخجل من التحدث بها.
"لهجتك قوية"، قال له أحد المدرسين.
".ابتسم كريم وقال: "كأن قلبي بيتكلم بلكنته الخاصة

لم يكن لديه أصدقاء حقيقيون. فقط زملاء عمل، وسيدة ألمانية كبيرة في السن كانت تبتسم له كل صباح عند محطة القطار وتقول:
"*Guten Morgen junger Mann!*"

وذات مرة، حين تأخر عن المحطة، شعر بغيابها أكثر مما تخيل

بدأ يشعر أن الغربة ليست مسألة جغرافيا

"هي غربة في اللسان، في الإحساس، في الردود الآلية على سؤال: "كيف حالك؟

:كتب في مفكرته

".أنا حيّ، لكن لا أحد يعرفني هنا. وأنا، أيضًا، بدأت أنسى وجهي"

الشتاء في برلين كان قاسيًا.
الشمس تغيب مبكرًا، والصمت يشتد.
كان يعود من العمل، يخلع حذاءه، يشعل مصباحًا خافتًا، ثم يجلس أمام النافذة، يتأمل شجرة عارية في الحديقة المقابلة.

كان يخاف من أن يصبح مثلها — واقفًا، لكنه بلا حياة

في إحدى الليالي، حلم بصوت والدته وهو يقول:
.ما تخليش المدينة تبرد قلبك ياكريم ....استيقظ باكيًا

في ٢٠١٧، بدأت التغييرات تظهر داخله
أصبح أكثر هدوءًا. أكثر عزلة. قلّ كلامه، لكن فكره ازداد ازدحامًا.
قرأ كثيرًا — سعد الله ونوس، أورهان باموق، وآخرين.

وكل مرة قرأ عن "المنفى"، كان يشعر أن الكلمات خيط رفيع يربطه بأرض ما زال يتوق إليها، رغم كل شيء

حاول مواعدة امرأة ألمانية تعمل في مجال الفنون، لكن العلاقة ماتت سريعًا.
قالت له "أنت فيك شيء مش موجود هنا"

لم ينكر.
كان فيه القاهرة بأكملها
بشوارعها المختنقة، وقهوتها المرة، وضحكات الناس في الزحام

في اواخر ٢٠١٩، بدأ يسمع عن فيروس جديد.
أولًا في الصين، ثم إيطاليا، ثم... كل مكان

برلين أغلقت.
المدينة، التي كانت باردة، أصبحت جامدة

وحين جلس في شقته الصغيرة، محجورًا، غمره سؤال واحد

"لو مت هنا، هل سيعرف أحد أنني كنت موجودًا؟"

المدينة أنقذته مرة من صخب القاهرة، لكنها لم تعطه مكانًا يزهر فيه

وأخيرًا، كتب في رسالة إلى والدته

.أنا تعبت. مش من الغربة، من الفراغ

.وعايز أرجع. مش علشان مصر اتغيرت

علشان أنا اللي اتغيرت

في مارس٢٠٢٠، توقف العالم

الوباء أغلق الحدود والمقاهي والأسواق، وفتح أبوابًا داخل كريم لم يكن قد طرقها

شعر لأول مرة أن الغربة لا تُقاس بالمسافة، بل بالصمت

فيديوهات من مصر و العالم—المستشفيات، طوابير الأوكسجين، جاره القديم في السيدة زينب الذي مات بلا تشخيص—ضربته كالمطر الحاد

في شقته ببرلين، عاش أيامًا بلا حديث.
بدأ يكتب مجددًا

ليس عن الثورة، بل عن الغياب.
.ليس عن الوطن، بل عن معنى أن يكون للمرء جذور حتى إن جفّت

اللقطة الثانية عشر العودة للقاهرة أواخر ٢٠٢١ للآن

عاد كريم إلى القاهرة دون ضجيج

لا استقبال في المطار، ولا عناق درامي. فقط حقيبة سوداء، و قليل من الشيب عند الصدغين، ونظرة رجل جرّب الصقيع الخارجي والداخلي

كانت البلد ما زالت كما تركها... تقريبًا.
لكن شيئًا خفيًا تغيّر.
الناس أكثر تعبًا، أكثر قلقًا، أكثر لهفة على البساطة.
.حتى الضحك—صار أكثر نُدرة، أغلى

استأجر شقة صغيرة في المعادي، على شارع جانبي هادئ.
بدأ يعمل بشكل حر في مجال الكتابة والمحتوى الرقمي، يقدّم ورشًا شبابية، يكتب لمواقع ثقافية .مستقلة، ويترجم مقالات من الألمانية والعربية

لم يعد يسعى للبطولات.
أصبح يعرف أن التغيير لا يحدث دائمًا بالهتاف.
.أحيانًا يحدث عندما تقرر البقاء... والعمل بصمت

بدأ يزور والدته كل أسبوع، يحمل لها وردًا أو خبزًا طازجًا من الفرن البلدي

قالت له مرة:
""وشك بقى فيه حاجة جديدة. راحة؟

ابتسم.
..."حمدًا على السلامة"

في بداية 2022، أطلق كريم مشروعًا شخصيًا:
"ذاكرة الشرفة" — منصة رقمية لجمع الحكايات الشفهية من بيوت القاهرة القديمة.
.قصص الأمهات، الجدّات، أصحاب المحلات، المدرسين المتقاعدين

كان يجلس في شققهم، يسجل بصوت منخفض، ويضع كل قصة على الموقع.
بعضهم بكى.
بعضهم ضحك.
".كلهم قالوا: "محدش سألنا قبل كده

لم يعد يتحدث كثيرًا عن الغربة.
لا يمجّدها، ولا يندم عليها.
يقول ببساطة:
"."كانت ضرورية. عشان أعرف أنا عايز أعيش إزاي

لم يعد ينتظر من البلد أن تتغيّر كي يعيش

بل أصبح يبحث عن الثغرات الصغيرة حيث يمكنه أن يزهر... ولو وحده

وفي كل صباح، كان يسقي نبتة صغيرة على شرفته، نبتة ياسمين أخذها من البيت القديم

لا لأنها رمزية

بل لأنها ببساطة... تزهر في التربة رغم كل شئ.